الفصل الرابع والسبعون

الكعبة

وكعبة مكة ، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم ، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية . فقد اندثر أثر الكعبات الأخرى وزالت معالمها ، ولم يبق لها مكـــان . والى الاسلام يعود ولا شك فضل بقـــاء (البيت الحرام) . وبفضل الإسلام أيضاً جمع العلـــماء ما تمكنوا من جمعه من تأريخ المدينة القديم والمعالم المتصلة بها ، ومن أخبار قريش ، لما لهذا التأريخ من صلة بظهور الاسلام[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك ، وأنهم كانوا يحجون اليها ويقدسونها ويقسمون بها . وأن ممن أقسم بها وذكر البيت

---

١ آل عمران ، الآية ٩٦ ، تفسير الطبري (٦/٤ وما بعدهـــا) ، (دار المعارف) ، الطبرسي (٤٧٦/٢) ، سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبـــري (٤٧/٣ وما بعدها ، ٦٦ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٧٨/٧ وما بعدها) ، سورة ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٥٢/١٣) ، روح المعاني (٢١٢/١٣) ، تفسير الطبرسي (٣١٧/٦ وما بعدها) ، البقرة ، الآية ١٢٧ ، تفسير الطبري (٥٤٦/١) ، تفسير الطبرسي (٢٠٦/١) ، البقرة ، الآية ١٥٨ ، تفسير الطبري (٤٣/٢) ، تفسير الطبرسي (٢٣٨/١ وما بعدها) ، سورة المائدة ، الآية ٩٧ ، تفسير الطبري (٧٦/٧ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٢٤٦/٣ وما بعدها) ، سورة الانفال ، الآية ٣٤ ، تفسير الطبري (٢٣٨/٣) ، تفسير الطبرسي (٥٣٩/٣) ، سورة الايلاف ، الآية ٣ ، تفسير الطبري (٣٠٧/٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٥٤٣/١٠) .

في شعره (زهير)[1] و (النابغة)[2] . وقد عرفت بـ (البيت العتيق) ، وبـ (البيت المعمور)[3] . ورووا أن (عدي بن زيد العبادي) قصدها بقوله :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا

دعاها (ذات الودع) لأنه كان يعلق الودع في ستورها[4] .

وقد أقسم بها شاعر جاهلي آخر ، هو (عوف بن الأحوص) إذ قال :

وإني والذي حجت قريش محارمه وما جمعت حراء

وشاعر عامري آخر ، إذ قال :

فأقسم بالذي حجت قريش وموقف ذي الحجيج الى إلال[5]

يريد بذلك مكة . وبمكة بيت الله .

ومعارفنا عن (البيت الحرام) ضئيلة ، وفي الذي يذكره أهل الأخبار عنه ما لا يمكن قبوله ولا الأخذ به ، لأنه لا يدخل في حدود التأريخ ، ولغلبة الطابع القصصي عليه . ثم إن بعضه يناقض بعضاً ، وفي بعضه تحيز وتعصب لبيت قرشي على بيت آخر . وحتى القسم الذي يتناول الأيام القريبة من الإسلام ، لا يخلو من اضطراب ومن تناقض ، وفيه شعر نحل على أناس ، أقحمت أسماؤهم في قصص مكة ، لتثبيته على طريقتهم في تثبيت الأخبار برواية شعر يتعلق بها .

ولم يعثر حتى الآن على كتابة جاهلية تكشف القناع عن تأريخ (البيت الحرام). ولذلك انحصر علمنا بتأريخه بما ورد في الموارد الاسلامية عنه .

وقد نص في القرآن الكريم ، على ان ابراهيم واسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت « وإذ جعلنا البيتَ مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ،

---

١ فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
ديوان زهير (١٥) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٦) .

٢ فلا ورب الذي قد زرته حججا وما هريق على الانصاب من جسد
(فلا لعمر الذي مسحت كعبته) في رواية أخرى، ديوانه (٢٥)، الثعالبي، ثمار (١٧) .

٣ البلدان (١/٥٢١) ، (بيروت ١٩٥٥) .

٤ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .

٥ المحبر (٣١٩) ، شرح ديوان لبيد (٢١) .

وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم اضطره الى عـذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبّل منا انك أنت السميع العليم »[1] . وقد كان تأسيس البيت في ايام العرب الأولى ، في ايام جرهم ، على روايات أهل الأخبار ، وفيهم تزوج . وفي عهده ظهر ماء بئر زمزم[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان مكة حرم آمن ، لا يحلّ فيه قتال ، ولم يكن أهله يقاتلون فيه ، وان أول بغي وقع فيه ، كان حرب وقعت بين (بني السباق بن عبد الدار) وبين (بني علي بن سعد بن تميم) ، حتى تفانوا . ولحقت طائفة من (بني السباق) بعك ، فهم فيهم . وقيل أول بغي كان في قريش : بغي (الأقايش) ، وهم (بنو أقيش) من بني سهم ، بغى بعضهم على بعض ، فلما كثر بغيهم على الناس ، أرسل الله عليهم فأرة تحمل فتيلة ، فأحرقت الدار التي كانت فيها مساكنهم فلم يبق لهم عقب[3] .

وقد بقي البيت معبوداً مقدساً عند أهل مكة وعند غيرهم ، غير أن المشركين حوّلوه الى بيت لعبادة الأصنام والأوثان والشرك حتى عـام الفتح ، حيث أزال الرسول عنه آثار الجاهلية ، وأمر بطمس معالم الوثنية . وصار حرماً آمنـاً خاصاً بالإسلام لا يدخله مشرك ولا تطأ أرضه أقدام غير مسلم مؤمن بالله وبرسوله .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يعظمون البيت،وأن من سنن تعظيمهم له ، أن من علا الكعبة من العبيد ، فهو حرّ لا يرون الملك من عـلاها ، ولا يجمعون بين عزّ علوّها وذل الرق[4] .

---

١ البقرة ، السورة رقم ٢ ، الآيه ١٢٦ وما بعدها .

٢ الطبري (١/٢٧٥) ، قصص الانبياء ، (٦٩) ، Shorter Ency. of Islam, p. 178. ff., Grünbaum, Neue Beiträge zu Sem. Sogenkunde, S. 102, Goldziher, Die Richtungen der Islamischen Koran-auslegung, S. 79, J. Harovitz, Koranische untersuchungen, S. 91.

٣ الروض الانف (١/٢٨) .

٤ الثعالبي ، ثمار (١٨) .

وانهم لم يكونوا يبنون بنياناً مربعاً بمكة تعظيماً للكعبة[1] . وأن أول من بنى بها بيتاً مربعاً ، (بديل بن ورقاء) الخزاعي ، وهو أول من اتخذ بمكة روشناً ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربيع في البناء كيلا يشبه بناء الكعبة[2] وأن أول من سقف بمكة سقفاً (قصي بن كلاب) ، وكان الناس قبل ذلك إنما ينزلون في العريش . وأن أول من بوب بمكة باباً (حاطب بن بلتعة)[3] .

و (بديل بن ورقاء) ، هو (بديل بن ورقاء بن عبد العزى) ، شريف كتب اليه النبي يدعوه الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة[4] . فلو أخذنا برواية من قال انه كان أول من بنى بيتاً مربعاً بمكة ، وأول من اتخذ بها روشناً ، وجب جعل حدوث ذلك في ايام النبي ، أو بسنين قليلة قبل المبعث ، فهل يعقل ذلك ؟ والروشن الرف ، و (الرشن) الكوة ، من الألفاظ المعربة عن الفارسية[5] .

وأما (حاطب بن أبي بلتعة) فهو (حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي) ، حليف بني أسد بن عبد العزى ، من الصحابة وممن شهد بدراً ، كان حليفاً للزبير ، وكان قد كتب كتاباً الى قريش يخبرهم بتجهيز رسول الله اليهم ، فضبط الكتاب قبل وصوله مكة ، واعتذر . فهو من الصحابة[6] ،وذكر ان الرسول أرسله الى (المقوقس) صاحب الاسكندرية[7] . فهل يعقل أن يكون أول من بوّب باباً بمكة ، وقد كانت البيوت قبله بمكة منذ وجدت ، فكيف كان يدخل الناس اليها ، وقد رأينا قصصاً لأهل الأخبار يروونه عن امتناع (الحمس) عن دخول البيوت من أبوابها ، والحمس هم قريش وأهل مكة قبل دخول (حاطب) اليها !

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً ، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرّات ، لذلك لم يتمكن (بيت ابراهيم واسماعيل) من البقاء ، ولكن

---

١ النعالبي ، ثمار القلوب (١٦) .
٢ صبح الاعشى (١/٤٢٦) .
٣ صبح الاعشى (١/٤٢٦) .
٤ الاشتقاق (٢٨٠) .
٥ تاج العروس (٩/٢١٦) ، (رشن) .
٦ الاصابة (١/٣٠٠) ، (١٥٣٨) ، المحبر (٧٢) .
٧ المحبر (٧٦) .

الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه . وإنهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبه يحاولون إرجاعه الى ما كان عليه في أيام آبائهم وأجدادهم جهد امكانهم ، لا يحدثون فيه تغييراً ولا يدخلون على صورة بنائه تبديلاً .

و (البيت الحرام) بناء مكعب ، ولذلك قيل له (الكعبة) . وصفه أهل الأخبار،فقالوا كانت الكعبة قبل الاسلام بخمسة أعوام صنماً ، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط ، فوق القامة ، وقيل كانت تسع أذرع من عهد اسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، وكان لها باب ملتصقة بالأرض . وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع[1] . ثم صنع (عبد المطلب) ، لها باباً من حديد ، حلاها بالذهب من ذهب الغزالين . وهو أول ذهب حليت به الكعبة[2] .

ووصف أهل الأخبار لها على النحو المذكور ، يجعلنا نتصورها وكأنها خربة بدائية بسيطة ، هي ساحة تكاد تكون مربعة أحيطت بجدار من أحجار رضمت بعضها فوق بعض من غير مادة بناء تمسك بينها ، تحط في فنائها الطيور وسباع السماء ، ولا يحول بين أرضها وبين أشعة الشمس المحرقة والأمطار التي تنزل على مكة أحياناً على شكل مياه خارجة من أفواه قرب ، أي حائل . إنها في الواقع حائط من أحجار لا يزيد ارتفاعه على قامة إنسان .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من بنى جدار الكعبة ، (عامر) الجادر من الأزد . فقيل له : (الجادر)[3] . وكان أول من جدر الكعبة بعد اسماعيل[4] .

وأول تسقيف لها كان — كما يذكر أهل الأخبار — في التعمير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، وذلك قبل الاسلام بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . وسبب ذلك حريق أصابها — كما يزعمون — فقرروا إعادة بنائها ، واجتمعوا وعملوا رأيهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب ، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب،وزعت في صفين . وزادا فيها تسع أذرع ، فصارت ثماني عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد اليها إلا في درج أو سلّم . ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساف

---

١ الروض الانف (١/١٢٧) ، الطبري (٢/٢٨٣ وما بعدها) .
٢ الروض الانف (١/١٠١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٦٤) ، (صادر) .
٤ الاشتقاق (٢٥) .

من حجر وساف من خشب ، حتى زادت عـلى ما كانت عليه في الأصل[1] . وورد في الأخبار ان رسول الله لما دخل الكعبة عام الفتح ، قام عند سارية فدعا، وفيها ست سوار[2] .

وذكر أهل الأخبار ، ان سبب بنيان الكعبة ، هو انهـا كانت رضمة فوق القامة ، وانها كانت قد تصدعت حتى تداعت جدرانهـا وتساقطت أحجارها ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنز الكعبة ، وانما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، فأجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها[3] .

ولم يكن هذا البناء الجديد بناءً فخماً ، كما يظهر من الوصف الوارد في كتب أهل الأخبار . كل ما فيه أنه غرفة سقفت الآن بخشب ، أقيم سقفها على صفين من أعمدة ، كل صف ذي ثلاثة أعمدة . وأما حيطانها ، فقد زيد ارتفاعها فصار ثماني عشرة ذراعاً ، بعد أن كانت تسع أذرع ، أو ارتفاع قامة أو أعلى من ذلك بقليل . وقد بنيت هذه المرة من مادة بناء قوية ، جعلت مدماكاً من حجارة ومدماكاً من خشب ، فكان الخشب خمسة عشر مدماكاً ، والحجـارة ستة عشر مدماكاً . وجعلوا سقفها مسطحاً له ميزاب ، يسيل منه ماء المطر . وهو عـلى الجملة لا يقاس بشيء بمعابد العربية الجنوبية مثل معبد (المقه) بمدينة مأرب أو المعابد الأخرى التي تمكن الباحثون من الوقوف على أسسها ومعالمهـا ، من حيث مساحة البناء أو الفن أو الروعة والعظمة .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل من تجار الروم رمى البحر بسفينته الى الساحل الى (الشعيبة) ، وهو مرفأ السفن من ساحل الحجاز ، وكان مرفأ مكة ، ومرسى سفنها قبل (جـدة) . فجاؤوا بالخشب الى مكة ، وكان بها نجار (قبطي) ، استعين به في تسقيف البيت بذلك الخشب . وذكر أن الذي سقف البيت علج كان في السفينة ، يحسن النجارة اسمه

---

١ الروض الانف (١٢٧/١ وما بعدها) ، الطبري (٢٨٣/٢ وما بعدها) ، « دار المعارف » ، البلدان (٢٥٩/٧) ، (الكعبة) ، مروج الذهب (١٦٩/١) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٢ صحيح مسلم (٩٧/٤) ، (باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة فيها والدعاء في نواحيها كلها) .

٣ الطبري (٢٨٣/٢) .

(باقوم) . فجيء به مع الخشب،وسقف الكعبة . وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة أو مسطحاً ، فأمروة أن يكون مسطحاً ، فعمله على ما أمروه به[1] . ويذكرون أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة أتى (عبدالله بن هبل ابن أبي سالم) ، ومعه مال ، فقال : دعوني أشرككم في بنائها ، فأذنوا له فبنى الجانب الأيمن ، فـ (لبني كلب يد بيضاء في نصرتهم لقريش حين بنوا الكعبة)[2] . وصاحب هذا الخبر هو (ابن الكلبي) ، ولا استبعد أن يكون خبره هذا من وحي العاطفة نحو قومه الكلبيين .

وذكر أن (باقوم) الرومي ، كان يتجر الى (المندب) ، فانكسرت سفينته بالشعيبة ، فخرجت اليه قريش فأخذوا خشبها . وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس، وقال لقريش : هل لكم أن تجروا عيري في عيركم ، يعني التجارة ، وأن أمدكم بما شئتم من خشب ونجار ، فتبنوا به بيت ابراهيم[3] .

ويذكر الأخباريون انه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدار تلقاء من دخلها يخلّقان ويطيّبان اذا طيب البيت ، وقد علق عليها معاليق من حلي كانت تهدى الى الكعبة . ويرمز القرنان الى قرني الكبش الذي ذبحه ابراهيم الخليل[4] . وقد بقيا في الكعبة الى ايام (عبدالله بن الزبير) فاحترقا مع الكعبة[5].

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق،زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلت « في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمان ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين . فلما كان يوم فتح مكة ، دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، البيت ، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب ، فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست .. ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليها السلام ، وقال:

---

١ الازرقي (١/١٠٤) ، ابن هشام (١/١٣٠ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (١/١٣٠) .
٢ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٣ الاصابة (١/١٤٠ وما بعدها) ، (رقم ٥٨٣) .
٤ الازرقي (١/١٠٠) .
٥ القاسمي ، شفاء الغرام (١٩) .

أمح جميع الصور ، إلا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه . ونظر الى صورة ابراهيم ، فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام، ما لابراهيم والأزلام »[1] . وقد بقيت صورة عيسى بن مريم وأمه ، الى ايام عبدالله بن الزبير ، فلما تهدّم البيت ، تهدمت الصورة معه[2] .

وأعاد الجاهليون — كما يذكر أهل الأخبار — الصنم هبل الى مكانه ، نصبوه أمام (الغبغب) ، وأعادوا معه بقية الأصنام ، التي كانت تتعبد لها بعض القبائل . ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى ، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة ، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة . وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح الى (٣٦٠) صنماً ، كان بعضها منحوتاً من الحجارة ، وبعضها معمولاً من النحاس ، وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة قوارير صفر . ولما دخل الرسول مكة ، أمر بها فأزيلت وحطمت ، فلم يبق من يومئذ بها صنم[3] . وذكر ان النبي دخل مكة « وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً . فجعل يطعنها بعود كان بيده . ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً »[4] .

وذكر في بعض الروايات أن رسول الله بعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته دخل الكعبة فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها[5] . وأنه لما طاف بالبيت وجد حولها أصناماً مشدودة بالرصاص ، فحطمت ، وأعظمها (هبل) صنم قريش[6] .

ويتبين من الروايات الواردة عن بناء الكعبة وعن اختلاف أهل مكة وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم على شرف وضع (الحجر الأسود) في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم ، وأنه كان أقدس شيء عندهم . وإلا لما اختلفوا

---

١ الازرقي (١/١٠٤ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٣/٨٧) ، ابن الاثير (٢/١٠٥)، نهاية الارب (١٧/٣١٣) .
٢ الازرقي (١/١٠٤) .
٣ السيرة الحلبية (١/١٤٤) ، ابن الاثير (٢/١٠٥) .
٤ صحيح مسلم (٥/١٧٣) ، « باب ازالة الاصنام من حول الكعبة » ، ارشاد الساري (٧/٢١٠) ، « باب وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »
٥ الروض الانف (٢/٢٧٤) ، نهاية الارب (١٧/٣١٢) .
٦ الروض الانف (٢/٢٧٦) ، نهاية الارب (١٧/٣١٤) .

هذا الاختلاف على وضعه ، حتى ليمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة ، بدليل عدم ورود إشارة ما الى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام الى مواضعها . ولو كانت الأصنام أقدس منه ، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع . وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفي الميزة التي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله . لقد ذهب (ولهوزن) إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية ، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه ، بل كانت بسبب هذا الحجر . لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته ، وهو الذي جلب القدسية للبيت ، فصار البيت نفسه مقدساً ، مقدساً في حد ذاته ، بحجره هذا الذي هو فيه ، ولعله شهاب (نيزك) ، أو جزء من معبود مقدس قديم[1] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش ، لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين ، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد[2] .

ويلاحظ ان التقرب الى الأحجار في بيوت العبادة كانت شائعة بين الجاهليين . وقد ذكر ان في (غيمان) موضع عبادة وفيه (حجر قحمم) (حجر قاحم) (حجر قاحم) ، وهو يشبه الحجر الأسود الذي كان يتقرب اليه الجاهليون في مكة . والحجر الذي كان في كعبة نجران وفي (تسلال) ، وفي مواضع أخرى عديدة ذكرها (الهمداني) . وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تبين للذين نقبوا فيها ان لها صلة بعبادة الأحجار ، وان تلك المقابر أقيمت عند موضع مقدس لوجود حجر مقدس فيه[3] .

وقد كان الجاهليون يلمسون الحجر الأسود للتبرك به ، وهو مبني في جدار الكعبة ، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه . وبين موضع (الحجر الأسود) وباب البيت يكون (الملتزم) ، وفي الناحية الشمالية الغربية (الحجر) أو (الحطيم) .

---

١ Reste, S. 74.

٢ المشرق : (١٩٤١) ، تموز ـ أيلول ، (ص ٢٤٧) .

٣ Beiträge, S. 84.

وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده[1] . ويقال للجهة التي فيها (الحجر الأسود) (الركن) . وذكر ان العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع الحطيم ما طافت به من الثياب ، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان ، فسمي الموضع حطيماً[2] .

وقد كانت الجاهلية تتحالف عند (الملتزم) بالأيمان ، وتدعو على الظالم ، وتعقد الحلف[3] .

وذكر (اليعقوبي) ان الجاهليين كانوا قد وضعوا (إسافاً) و(نائلة)، داخل المسجد الحرام . وضعوا كل واحد منهما على ركن من أركان البيت ، فكان الطائف اذا طاف بدأ بإساف فقبله وختم به . وذكر انهم نصبوا على الصفا صنماً ، يقال له (مجاور الريح) ، وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير)[4] .

وفي روايات أهل الأخبار عن تزويق الكعبة بالصور لبس وغموض . وهي روايات عديدة ، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت ، رسمت على دعائم السقف . ويفهم من بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متنقلة ، وأنها كانت معلقة على جدران البيت . ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمست معالم جميع الصور ، ويفهم من بعض آخر ، أنه استثنى منها صورة مريم وابنها عيسى ، وأنها بقيت كما ذكرت الى أيام عبدالله بن الزبير . فلما تهدم البيت : تهدمت الصورة معه . أما رسم شجر أو صور ملائكة أو أشباه ذلك في الكعبة ، فأمر لا اعتراض عليه ، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني ، يضم الأصنام . ولكن ما للوثنية والانبياء ، وما شأن الشرك بمريم وبابنها وببقية الرسل حتى ترسم صورهم على جدران أو أعمدة البيت ؟ ثم هل كانت الكعبة مزوّقة قبل هذا التزويق بالرسوم والصور ؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمة ؟ أم هي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت ؟ ورأيي أن هذه الصور هي من عمل عمّال نصارى أراهم الروم الذين جلبهم أهل مكة مع (باقوم) بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للاتجار معهم ولبناء الكعبة .

---

١ تاج العروس (٣/١٢٥) ، (٨/٢٥١) ، اللسان (٤/١٦٦) ، (١٥/٢٩) ، البلدان (٢/٢٢٣ وما بعدها) ، (٥/١٩٠) ، أخبار مكة ، للازرقي (٢٤٦) ، تاج العروس (٩/٥٩) ،

٢ اللسان (١٢/١٣٩) ، (حطم) ، تاج العروس (٨/٢٥١) .

٣ البلدان (٨/١٤٦) « الملتزم » .

٤ اليعقوبي (١/٢٢٤) .

و (باقوم) كما يقول الاخباريون هو الذي أشرف على إقامة البنـــاء وهندسته . وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد . ولا أستبعد ان يكون هـــو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم . وقـد كان هؤلاء نصارى ، فرسموا على جدران البيت أو أعمدته صور قصص كتابي ، ومنه صور الانبياء ، للزينة والزخرف . لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الاصنام. ومن يدري ، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها ، فلم يعترضوا لذلك عليه . أما طمس الاسلام لتلك الصور ، فللعلماء في ذلك كلام. وقد أشير اليه في كتب الحديث ، وأكثرهم على أن الرسول لم يستثن مـــن ذلك الطمس صورة[1] .

وفي الحرم بئر (زمزم) ، وهناك مقام ابراهيم ، وبين زمزم ومقام ابراهيم كان موضع الذبح ، ذبح القرابين . ويرى (ولهوزن) احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه[2] .

ويرجع الأخباريون تأريخ بئر (زمزم) الى يوم بناء الكعبة وعهد اسماعيـــل . ويقال لها (بئر اسماعيل) أيضاً . وهي في الحرم في جهـــة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن . ولا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ويظهـر من روايات أهل الأخبار عنها انها دفنت في ايام جرهم ، وان أهـــل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى احتفروها ، ويستوردونه من الخارج اليها ، حتى اذا كانت ايام عبد المطلب ، ألقى في قلبه ان يحتفرها ، فحفرها واستخـــرج منها كنزاً ، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم[3] . ولأهـل الأخبار تفاسير عديدة للفظـــة (زمزم) ، تدل على انهم لم يكونوا على علم بأصل التسمية ، مما جاء فيها ان الملك (سابور) لما حج البيت أشرف عليها وزمزم فيها ، فقيل لها (زمزم)[4] . وهكذا جعلوا (سابور) من المؤمنين الحجاج للبيت الحرام ، المتبركين بماء زمزم!

---

١ الازرقي (١/١٠٤) ، تعليقات السيد رشدي الصالح ملحس على الازرقي » .

٢ Reste, S. 76.

٣ الطبري (٢/٢٥١) « دار المعارف » ، الروض الانف (١/٨٠ ، ٩٨ وما بعدها) ، الازرقي (١/٢٤ ، ٢٨٠ وما بعدها) ، البلدان (٢/٦٤٣) ، Shorter Ency. of Islam, p. 657.

٤ البلدان (٣/١٤٧) ، الصحاح (٥/١٩٤٥) ، اللسان (١٢/٢٧٥) ، البكري ، معجم (٢/٧٠٠) ، عمدة القاريء (٩/٢٧٧) ، البلدان (٢/٩٤٠ وما بعدها) .

وكان حرم (الكعبة) كما يظهر من روايات أهل الاخبار واسعاً شاسعاً ذا نبت وشجر . ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجره او قطعه لحرمة المكان ولحرمة ما فيه ، فبقيت أشجاره على ما هي عليه ، حتى إذا ما كانت أيام (قصي) ، ضاقت مكة بمن وفد عليها من قريش ، ممن جاء بهم (قصي) اليها ، وقطعها (قصي) رباعاً ، وأرادوا البنيان ، ولكنهم هابوا قطع شجر الحرم للبنيان ، وتذكر رواية أنهم قالوا لقصي : كيف نصنع من شجر الحرم ؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك . فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله[1] . وتذكر روايات أخرى العكس . تذكر أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه[2] . وبذلك تقلصت أرض الحرم وقلت أشجاره بالتدريج .

وتذكر رواية ان اهل مكة كانوا يهابون حتى في الإسلام قطع شجر الحرم . وقطع كل شجرة دخلت من أرض الحرم في دور أهل مكة . وان (عمر) لما قطع (دوحة) كانت في دار (اسد بن عبد العزى) ، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة ، وذلك قبل ان يوسع المسجد ، ودّاهـا بقرة . وتذكر ايضاً ان (عبدالله بن الزبير) حين ابتنى دوراً بـ (قعيقعان) ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان ، وجعل دية كل شجرة بقرة . وذكر ان (أبا حنيفة) ، قال إن كانت الشجرة التي في الحرم مما يغرسها الناس ويستنبتونها فلا فدية على من قطع شيئاً منها ، وإن كان من غيرها ففيه القيمة بالغاً ما بلغت[3] .

وفي الحديث ان الله حرم مكه ، وحرم شجر الحرم في جملة ما حرمه على الناس[4] .

ويظهر ان أرض مكة كانت كلها في الأصل قبل ايام (قصي) حمى للكعبة ، على عادة الجاهليين في تخصيص (حمى) لأربابهم تكون حول بيوتها ، ولهذا كانت أشجار هذا الحمى أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها ، سوى أخذ بعض أغصانها أو لحائها لعمل قلائد منها للاحتماء منها . فلما استباح أهل مكة لأنفسهم

---

١ الروض الانف (١/٨٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٢٥٨) « دار المعارف » .
٣ الروض الانف (١/٨٧ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/١٢٨) .

التطاول على الحرم ، أي على هذا الحمى ، بقطع شجره وتحويل أرضه الى بناء، أو بابقاء بعض أشجاره في داخل الدور ، بقوا ينظرون الى ذلك الشجر الباقي في البيوت نظرة هيبة وتقدير ، باعتبار انه من بقايا الحرم القديم . وبذلك صغرت مساحة الحرم ، وقلّت مساحته ، حتى اضطر الخليفة (عمر) الى توسيعه بشراء البيوت التي أقامها الناس عليه وادخالها في الحرم من جديد ، وذلك حين ضيّق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها ، فقال : « إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم » ، فاشترى بعض الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها ، ثم اشترى عثمان دوراً أخرى وأغلى في ثمنها[1] ثم زاد في المسجد من جاء بعدهما حتى وصل الى النحو الذي هو عليه الآن .

ولم يكن للحرم في الجاهلية سور ، إنما كانت تحدد معالمه وحدوده أنصاب نصبت على أطرافه . لتكون علامة على ابتدائه وانتهائه . أما ما نراه في الوقت الحاضر من وجود سور مرتفع له ، أي حائط به غرف ، فإنه مما حدث في الاسلام . وذكر أهل الاخبار ان الحرم قد ضرب على حدوده بالمنار القديمة التي بيّن ابراهيم مشاعرها ، وكانت قريش تعرفها في الجاهلية والإسلام ، لانهم كانوا سكان الحرم، ويعلمون ان ما دون المنار الى مكة من الحرم ، وما وراءها ليس من الحرم . فما كان دون المنار،فهو حرم لا يحل صيده ولا يقطع شجره ، وما كان وراء المنار ، فهو من الحل يحل صيده ، إذا لم يكن صائده محرماً[2] .

الكسوة :

وكسوة البيت عادة قديمة ، كان يقوم بها الجاهليون . ينسبها الأخباريون الى (تبع أسعد الحميري) ، فيذكرون انه كساها بالأنطاع ، ثم كساها بثياب جدة من عصب اليمن ، أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات[3] . ولا يستبعد ان يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت ، حيث كان خيمة في الأصل . وقد

---

١ الروض الانف (١/١٢٩ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٩) ، (حرم) ، اللسان (١٢/١٢٢) ، (حرم) .
٣ الازرقي (١/١٦٥) ، الروض الانف (١/٢٤) .

ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل أن تكون الكعبة[1] . وكذلك كان معبد بني اسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبنى الهيكل .

ويذكرون أن التبع الذي كسا البيت ، هو التبع الذي أتى به (مالك بن عجلان) الى يثرب لطرد اليهود عنها . وذكروا أن ذلك التبع هو (أسعد ابو كرب الحميري)[2] . وقد كساها الوصايل ، ثياب حبرة من عصب اليمن . وكانت الكعبة تكسى بالحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن ، تكسى بها ويوضع ما يفضل منها في خزانة الكعبة . فإذا تمزقت الكسوة ، تستبدل بكسوة أخرى تؤخذ من الخزانه . تكسى من الداخل والخارج ، وتطيب بالخلوق وتبخر بالمجامر[3] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن (التبع أسعد) ، وذكرت ما قاله رواة الأخبار عنه ، وما جاء عنه في نصوص المسند . وكان قد علق في ذاكرة أهل الأخبار أشياء عنه وعن بعض من جاء بعده ، زوقت ونمقت على طريقتهم في رواية أكثر أخبار اليمن . ولعل ما ذكروه عن اكسائه البيت ، هو من مصنوعاتهم التي وضعوها في الاسلام ليجعلوا لأهل اليمن فضلاً على الكعبة ، فضل يسبق فضل العدنانيين عليها ، وقد رأينا أنهم أوجدوا لهم جملة أنبياء نسبوهم الى قحطان ، ووضعوا أشياء أخرى كثيرة ، في اظهار فضل القحطانيين على الاسماعيليين المتعربين يوم فات الحكم من قحطان وصار في أهل مكة في الإسلام . فكان النزاع القحطاني العدناني المعروف .

ولو جارينا أهل الأخبار ، وأخذنا بروايتهم في ان التبع (أسعد أبو كرب الحميري) ، كان أول من كسا الكعبة ، نكون قد رجعنا بمبدأ تأريخ اكساء الكعبة الى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن هذا الملك في الجزء الثاني من هذا الكتاب[4] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة ، ولا من نسيج واحد ، بل كانت انطاعاً ، أي أبسطة من أدم ، وحبرة وبروداً ، وغيرها من عصب اليمن . وهي برود يمنية يعصب غزلها ثم يصبغ وينسج ، فيأتي

---

١ الازرقي (١/٦) « ذكر هبوط آدم الى الارض » .
٢ البلدان (٤/٤٦٣) .
٣ أخبار مكة ، للازرقي (١/١٧٣ وما بعدها) .
٤ (ص ٥٦٩ فما بعدها) .

موشىّ ، وقيل هي برود مخططة[1] . وذكر ان النبي كساها الثياب اليمانية ، وان عمر وعثمان كسواها بالقباطي[2] .

وذكر ان أول من كسا البيت الحرير (نتيلة بنت جناب بن كليب) وهي من (بني عامر) المعروف بالضحيان ، وكان من ملوك ربيعة . وكان العباس ابن عبد المطلب ابنها ، قد ضاع وهو صغير ، فنذرت امه إن وجدته ان تكسو البيت الحرير ، فكسته ، فهي أول من كساه ذلك[3] . وقيل أول من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب . أخذ لطيمة من البر وأخذ فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة[4] .

وروي انهم كانوا يكسون الكعبة يوم (عاشوراء) ، وذكر ان (بني هاشم) كانوا يكسونها يوم التروية بالديباج ، لتظهر في أحسن حال ، ويراها الناس على ذلك . أما اذا حلّ يوم عاشوراء ، فانهم يعلقون الازار عليها . وورد انهم كانوا يكسون الكعبة بالديباج يوم التروية ، فيعلق عليها القميص ولا يخاط ، حتى اذا ما انصرف الناس من (منى) خيط وترك الازار ، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء ، ويعلق عليها الازار ، ويوصل بالديباج[5] .

ولا نستبعد احتمال كون يوم (عاشوراء) من الأيام التي كانت لها حرمة وقدسية عند أهل الجاهلية ، وإن كنا نجهل كل شيء عنه وعن سبب احتفال أهل مكة به ، وصومهم فيه . وقد ذهب بعض المستشرقين الى احتمال تأثر قريش بعاشوراء اليهود ، كأن يكون أحد سادة مكة قد أخذ ذلك اليوم عنهم فعظمه ، فأخذه أهل مكة عنه وجعلوه سنّة لهم . غير ان من الجائز ألا يكون لهذا اليوم صلة بعاشوراء اليهود ، وانما كان من تقاليد أهل مكة القديمة المعروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا صلة له بيوم يهود[6] .

ويظهر انهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة ، فلا يرفعونها

---

١ اللسان (١/٦٠٤) ، (عصب) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) ، كتاب نسب قريش (١٨) ، الروض الانف (١/٧٧) .
٤ الروض الانف (١/٧٧) .
٥ الازرقي ، أخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) .
٦ Shorter Ency., p. 47.

عنها ، فكانت تتراكم بعضها فوق بعض ، فلما جاء الاسلام ، استمروا على ذلك أمداً ، ثم رأى (شيبة بن عثمان) سادن البيت ، تجريدها من أكسية الجاهلية ، لأنها رجس من عمل الجاهليين فأزيلت . ثم رأى الخليفة المهـدي ، أن الأكسية قد أثقلت الكعبـة ، فأمر بتجريدها ، تخفيفاً عنها ، واكتفى بثلاث كسيّ من القباطي والخز والديباج[1] .

وذكر أهل الأخبار أن اول من حلّل البيت (عبد المطلب) ، جدّ النبي ، لما حفر (بئر زمزم)،وأصاب فيه من دفن جرهم غزالين من ذهب ، فضربهما في باب الكعبة[2] .

المال الحلال :

وقد تجنب أهل الجاهلية بناء معابدهم بمال حرام ، فلما أرادت قريش بنيـان الكعبة نادى مناديهم : لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيه مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحـد من الناس[3] . هذا ما يذكره أهل الأخبار ويروونه عن بناء البيت الحرام .

بقية محجات العرب :

ومن محجّات العرب وبيوتها المعظمة : بيت عرف بـ (بس) لغطفـان ، كانت تعبده . بناه (ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف) ، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت ، وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه ، فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين ، فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحـج ، فأغار (زهير بن جناب الكلبي) ، فقتل ظالماً وهدم بناءه . وورد في رواية أخرى ان (العزى) سمرة عبدتها غطفان . أول من اتخذها (ظالم بن أسعد) ، فوق ذات

---

١ الازرقي ، أخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) ، الاصابة (٢/١٥٧) ، (شيبة بن عثمـان) .
٢ البلدان (٤/٤٦٣ وما بعدها) .
٣ الروض الانف (١/١٣٠ وما بعدها) .

عرق الى البستان بتسعة أميال ، بنى عليها بيتاً وسمّاه بسّاً ، وأقام لها سدنة ، فبعث اليها رسول الله (خالدَ بن الوليد) ، فهدم البيت وأحرق السمرة[1] .

وفي أخبار أهل الأخبار عن بيت (العزى) ، أوهام وتناقض . فتراهم يجعلون (العزى) صنماً مرة ويجعلونها (سمرة) أو (شجرة) أو ثلاث سمرات مرة أخرى ، ثم تراهم يخلطون بين البيت وبين الحرم الذي كان حوله ، كما بينت ذلك في اثناء حديثي عن (العزى)[2] . والذي أراه ، انه كان للعزى بيت هو (بس) ، فيه صنم العزى ، وكان حوله حرم ، كحرم مكة ، به (سمرة) أو ثلاث سمرات ، كان الناس يقدسونها أيضاً ويتقربون اليها بالنذور . وهي جزء متمم لبيت العزى . فلما أمر الرسول خالد بن الوليد ، بهدم العزى ، هدم البيت وحطّم الصنم ، فرجع ، فلما سأله الرسول عنه ، واستفسر منه عن السمرة أو السمرات الثلاث ، وعلم منه انه لم يقطعها ، أمره بالعودة اليها وقطعها اجتثاثاً لكل علامة من علائم عبادة هذا الصنم . فقطعها . فقطع عن عبّادها كل صلة لهم كانت تربطهم بذلك الصنم .

ومن محجّات الجاهليين ، بيت الصنم (ذو الخلصة) ، ذكر أنه كان بتبالة ، وكان يسمى بـ (الكعبة اليمانية) ، تمييزاً له عن الكعبة التي عرفت بـ (الكعبة الشامية) . وذكر أنه نفسه عرف بـ (الكعبة الشامية) ، كما دعي بـ (كعبة اليمامة) ، وقد تحدثت عنه في أثناء كلامي على هذا الصنم . ولما هدم البيت والصنم بأمر الرسول ، صار مكانه موضع عتبة باب مسجد تبالة . وذكر أن البيت هو (ذو الخلصة) ، والصنم (الخلصة) ، وقيل (ذو الخلصة : الصنم نفسه)[3] وقد عرف البيت بـ (الكعبة) كذلك ، لأنه كان بناءً مكعباً . وكان بيتاً في خثعم باليمن ، وكانت بجيلة تعظمه كذلك . به صنم ، هو (ذو الخلصة) ونصب يذبحون عليه[4] . ويظهر أنه كان من البيوت المعظمة الكبيرة ، بدليل ما ذكره العلماء من أن الرسول قال لجرير بن عبدالله البجلي : « ألا تريحني من ذي الخلصة » ؟ فذهب اليه وأحرق البيت وهدم الصنم وكسر النصب . وذكر

---

١ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) ، مراصد الاطلاع (٩٣٧) .
٢ البلدان (١/٤١٢) ، (بساء) .
٣ تاج العروس (٤/٣٨٩) ، (خلص) .
٤ ارشاد الساري (٦/٤٢٤ وما بعدها) .

أن موضع (دي الخلصة) . صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها . العبلات من أرض خثعم[1] .

وقد ذكر (أبو العـــلاء المعري) أن فدك كانت في الجاهلية ذات أصنام . وكانوا يقصدونها للحج ، وذكر تلبيتهم لها[2] .

وكان بيت (اللات) من البيوت المعظمة عند ثقيف . كانوا اذا عاد أحدهم من سفر ، فأول مـــا يفعله أن يأتي (الربة) ، وهي اللات ليتبرك بها . وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف . ولما أسلم (عروة بن مسعود الثقفي) ، وعاد الى قومه دخل منزله ، فأنكر قومه عليه دخوله قبل أن يأتي الربة ، يعني اللات. وفي حديث وفـــد ثقيف : كان لهم بيت يسمونه الربة . يضاهون بيت الله[3] . وكانت ثقيف تضاهي أهـــل مكة ، وتنافسهم على الزعامة . وكان لبيت اللات أستار وسدنة وحوله فناء معظم ، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب[4] .

ولأهل اليمن بيوت تعبدوا لها ، وبقيت معظمة عندهم الى الاسلام . من ذلك بيت عرف بـ (بيت رئام) . ذكر (ابن اسحاق) ان أهـــل اليمن كانوا يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون . وكانوا يعتقدون ان رئاماً كان فيه شيطان ، وكانوا يملأون له حياضاً من دماء القربان ، فيخرج فيصيب منها ، ويكلمهم ، وكانوا يعبدونه[5] . وبيت غمدان ، وقد ذكروا ان الضحاك بناه باليمن على اسم الزهرة[6] ، فجعلوه بيتاً ، أي موضع عمادة ، بينما هو دار حـــكم وبيت الملوك بصنعاء ، كما سبق ان تحدثت عنه .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (ريام) بيت بصنعاء كان لحمير ، وكان به كلب أسود . وان الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت[7] .

وكان (ذو الكعبات) لبكـــر ولتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول الأعشى :

---

١ ارشاد الساري (٦/٤٢٣ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٥٣٥) ، (بنت الشاطىء) .
٣ تاج العروس (١/٢٦٢) ، (دبب) .
٤ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .
٥ الروض الانف (١/٢٨) .
٦ نهاية الارب (١/٦٢) .
٧ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٤) .

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد[1]

وذكر انه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به ، وقد ذكره الأسود بن يعفر في شعره ، فقال :

والبيت ذي الكعبات من سنداد[2]

فالبيت للأسود لا للأعشى على هذه الرواية .

وقد تعرض (ابن كثير) لموضوع بيوت الأصنام : اللات والعزى ومناة ، فقال : « وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير ان هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ... قال ابن اسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها »[3] . وما فات من أسماء المحجات في العربية الجنوبية والشرقية وفي نجد ، قد يزيد عدده على ما ذكرنا . فات عنا، لأن أهل الأخبار لم يذكروا شيئاً عنها ، لانصراف اهتمامهم الى الحجاز وما كان له صلة بالاسلام، من أرضين ، فحرمنا بذلك من الوقوف على أخبار المحجات في المواضع الأخرى من جزيرة العرب .

ويحجّ الناس الى هذه البيوت في أشهر معينة من السنة ، هي الأشهر الحرم ، وهي أشهر مقدسة لا يحل فيها قتال ولا اعتداء على أحد،فهي أشهر هدنة وسلام، أشهر خصصت بالآلهة ، فلا يجوز انتهاك حرمتها . وفي شهر الحج الذي يحج فيه الناس الى أصنامهم ، يجتمع الناس في المعبد لأداء الفروض المكتوبة المعينة، فيكون الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس . ويتباذلون به السلع ، ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بأرباح كبيرة ولا شك . وقد ذكرت أن هذه الحرمة لم تكن عامة ، فقد كان من العرب من لا يراعيها ولا يحترمها ، ثم إننا لا ندري إذا كان أهل العربية الجنوبية أو العربية الشرقية كانوا يعرفونها أم لا !

---

١ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٤) .
٢ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (كعب) ، اللسان (١/٧١٨) ، (كعب) .
٣ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .

وليست كل المعابد محجة للناس ، يقصدونها في الأيام أو في المواسم . فقد كان في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان ، ولا يحج اليها ، بل كانت المعابد التي يحج اليها معدودة معينة . لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى . ولهذه الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة . واذا استثنينا ما ورد عن مكة ، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى . ثم إن في أكثر ما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للنقد ، لأنه منقول عن أفواه رجال يظهر أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص .

المزارات :

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون اليها ويتبركون بها ، وقد بلغ من بعضهم ان جعلها حمى وملاذاً من دخل اليها أمن ، ومن لجأ اليها وكان محتاجاً أغيث ، ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث ، حتى صارت في منزلة المعابد . ومنها أضرحة السدنة والكهان وسادات القبائل ، فقد كان قبر (تميم) جدّ قبيلة (تميم) مزاراً معظماً عند أبناء القبيلة من احتمى به من (بني تميم) ومن غيرهم صار آمناً .

ولم أجد في أخبار اهل الأخبار ما يفيد بوجود أضرحة في مكة ، اتخذت مزاراً وموضعاً يتبرك به . يعظمونه ويتقربون اليه بالنذور والذبائح . لقد كان قبر قصي معروفاً عند أهل مكة ، ولكنهم لم يتخذوه مزاراً ومصلى على ما يتبين من روايات الأخباريين .